

## الفصل الثاني

### المولد والنشأة

تقول النصوص الإسلامية إن بيت الله (الكعبة) قد بناه إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- باسم التوحيد الصرف لعبادة الله الواحد، خالق السماوات والأرض، إله البشرية وجميع الأنبياء والمرسلين<sup>(1)</sup>. وقد مضت القرون وأصبحت مكة مكاناً للحج ولكن أيضاً على الأغلب سوقاً ومركزاً تجارياً، الأمر الذي أدى إلى توليف ثقافي وديني واسع النطاق، وبعد مدة من الزمن حلت مكان عبادة الواحد الأحد عبادة الأوثان القبلية أو المحلية، أي تعدد الآلهة، كما تقول النصوص الإسلامية: إنه عندما نزل الوحي كان يوجد داخل الكعبة أكثر من 360 من الأصنام والصور أو التماثيل التي كانت موضعاً للعبادة، ولم يبق سوى جماعة صغيرة من المؤمنين المتعلقين بعبادة الله الواحد الأحد والذين رفضوا الانضمام إلى العبادة الجماعية للأوثان، وكان هؤلاء يدعون بالأحناف ويتماهون بأعراف التوحيد الإبراهيمية<sup>(2)</sup>. وقد وصف القرآن ذاته إبراهيم عليه السلام وطبيعة عبادته بأنه حنيف خالص: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾<sup>(3)</sup>.

كان أشهر الحنفاء في زمن محمد ﷺ يدعى ورقة بن نوفل وكان قد تحول إلى النصرانية، وكان نوفل يمثل هو والمؤمنون الآخرون، وهم اليهود والنصارى الذين كانوا في المنطقة، التوحيد الذي أصبح هامشياً والذي كان موضع ازدراء ومقاومة في مكة وما حولها.

## الولادة

يقول ابن هشام في كتابه الرائد عن حياة النبي محمد ﷺ، إن ابن إسحاق قد أثبت بشكل واضح ودقيق تاريخ ولادة النبي: «لقد ولد الرسول ﷺ يوم الإثنين في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول في عام الفيل»، وتذكر روايات أخرى شهراً أخرى من السنة، إلا أنه كان يوجد تاريخياً قبول على نطاق واسع لذلك التاريخ لدى البحاثة وضمن الجماعات الإسلامية، وبما أن التقويم الإسلامي هو تقويم قمري، فإن من الصعوبة بمكان تحديد الشهر الشمسي لولادته على وجه الدقة، لكن عام الفيل الذي يشير إليه ابن إسحاق يقابل سنة 570 ميلادية.

ولد خاتم الأنبياء لواحدة من أعرق أسر مكة، وهم بنو هاشم الذين كانوا يحظون باحترام شديد لدى كافة العشائر في مكة وما حولها، وقد اقترنت عراقية المنبت بتاريخ شخصي أليم وموهن.

وكانت أمه آمنة في الشهر الثاني من الحمل عندما توفى أبوه، عبد الله، خلال رحلة إلى يثرب إلى الشمال من مكة. وقد قدر لمحمد ﷺ، الذي حُرِم من الأب عند ولادته، أن يعيش مع التوتر الناجم عن الوضع الشائئ المفترض في مكة والمتمثل في سلالة عريقة، من جهة، وعدم الاستقرار الناجم عن عدم وجود أب له، من جهة أخرى.

يقول ابن إسحاق: إن اسم محمد ﷺ الذي لم يكن معروفاً في ذلك الوقت في شبه الجزيرة العربية، جاء إلى أمه في رؤيا وهي لا تزال حاملاً<sup>(6)</sup>. ويقال إن هذه الرؤيا ذاتها بشرتها بولادة «سيد هذه الأمة»؛ وقد ورد في تلك الرؤيا أنه يتعين عليها أن تقول عند ولادته: «أعيذه بالواحد من كل حاسد»<sup>(7)</sup>، وكانت آمنة تعاني من وفاة زوجها وتشعر ببهجة الترحيب بوليدها وكانت تردد كثيراً بأن حملها اقترن بعلامات عجيبة، ثم بالسهولة الخارقة لولادة طفلها.

## الصحراء

سرعان ما أدركت آمنة أنها أم لطفل غير عادي، وكان يشاركها هذا الشعور جد محمد ﷺ، عبد المطلب، الذي تولى رعايته بعد ولادته، في مكة جرت العادة بأن يعهد بالرضع إلى مرضعات من القبائل البدوية التي تعيش في الصحراء القريبة من مكة، وبما أن الطفل محمد ﷺ كان يتيماً فقد امتنعت المرضعات الواحدة تلو الأخرى أن تأخذه، خشية ألا يعود عليهم وضعه كيتيم بالفائدة، وقد قررت حليلة التي وصلت متأخرة بسبب ضعف حمارها الذي كانت تمتطيه، هي وزوجها، أن تأخذ الطفل، رغم كونه يتيماً، أفضل لهما من تعرضهما للسخرية من جانب قبيلتهما عند عودتهما إلى مقرهما، لذا فقد عادا ومعهما الطفل اليتيم محمد ﷺ. وقد روت حليلة، مثل أمه آمنة مشاهد علامات كثيرة جعلتها تعتقد هي وزوجها بأن الطفل كان مباركاً.

ظل اليتيم تحت رعاية حليلة أربع سنوات وعاش مع بني سعد البدوي في الصحراء العربية، وقد شارك حياة البدوي في بيئة جرداء وصعبة تحيط

بها، على مرأى العين، آفاق تثير في النفوس الشعور بهشاشة الإنسان وتبعث على التأمل والوحدة، ومع أن محمداً ﷺ لم يكن يدري أنه كان يمر بالتجارب الأولى التي قدرها له الواحد الأحد، الذي اصطفاه رسولاً له وكان، في تلك المرحلة، هو الذي تولى تربيته ورعايته (8).

وقد ورد في القرآن ذكر هذا الوضع الخاص للطفل بوصفه يتيماً فضلاً عن التعاليم الروحية التي اقترنت بخبرة الحياة في الصحراء:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۚ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۙ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۙ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۚ﴾ (9).

هذه الآيات القرآنية تنطوي على عدة دروس: فحالة اليتيم والفقر كانت مرحلة أولى لتهيئة رسول الله ﷺ للمستقبل، وذلك لسببين على الأقل. الدرس الأول هو بالطبع ما لا بد أنه قد شعر به من الضعف والفقر منذ سنوات طفولته الأولى، وقد تفاقم هذا الوضع حين توفيت أمه آمنة وذلك حين كان محمد ﷺ في السادسة من العمر، هذا تركه في كنف الله كلياً، ولكنه كان قريباً من أفقر الناس وأكثرهم عزراً، فيذكره القرآن بأنه يجب عليه ألا ينسى ذلك طيلة حياته، ولا سيما أثناء بعثته النبوية، لقد كان يتيماً وفقيراً، ولهذا فقد كان يذكر ويؤمر بأن لا يتخلى أبداً عن المحرومين والمعوزين. فانطلاقاً من الطابع المثالي للتجربة النبوية، فإن الدرس الروحي الثاني الذي يستخلص من هذه الآيات صالح لكل إنسان: ألا ينسى أبداً ما كان عليه في الماضي، والمحن التي مر بها وبيئته وأصله،

وتحويل تجاربه إلى درس إيجابي له وللآخرين، يذكر الواحد الأحد محمداً ﷺ بأن ماضيه يُعد مدرسة يجب أن يستقي منها معرفة مفيدة وعملية وملموسة لأولئك الذين شاركهم حياتهم ومعاناتهم، لأنه يعرف من تجربته أكثر من أي طرف آخر، مشاعرهم ومعاناتهم.

### التربية والطبيعة

تعمل حياة الصحراء على تكوين الإنسان ونظرته للخلق ولعناصر الكون. فعندما جاء محمد ﷺ إلى الصحراء، تعلم من تقاليد البدو الكلامية الغنية ومن شهرتهم ليكتسب ويتقن اللغة المحكية، وفي مراحل حياته اللاحقة، برز خاتم النبيين ﷺ جراً فصاحة كلامه وقوته، ولا سيما قدرته على إيصال تعاليم عميقة وشاملة حيث أوتي جوامع الكلم، كثيراً ما كانت الصحراء مرتع النبوات لأنها توفر بطبيعتها للنظرة الإنسانية آفاق اللا نهاية، فبالنسبة للبدو، الذين تتصف حياتهم بالترحال الدائم، تقتزن لا نهائية المكان بالشعور بالحرية التي تقتزن -هنا أيضاً- بالشعور بالزوال والضعف والتواضع، وقد تعلم البدو الترحال والغربة والقدرة على أن يفهموا، في قلب لا نهائية المكان، المتواصلة واللا نهائية الدورية للزمن، تلك هي تجربة حياة المؤمن، التي وصفها النبي ﷺ لاحقاً لعبد الله الشاب ابن عمر - رضي الله عنهما - بعبارات تذكر بهذا البعد: «كن في هذه الدنيا كغريب أو كعابر سبيل»<sup>(10)</sup>.

في سنوات حياته الأولى نشأت لدى محمد ﷺ علاقة خاصة بالطبيعة وظلت ملازمة له طيلة مدة بعثته، فالكون يعج بالآيات التي تشير إلى

وجود الخالق، وتفتح الصحراء - أكثر من أي شيء آخر - العقل الإنساني للملاحظة، والتأمل والوصول إلى المعاني.

فكثير من الآيات القرآنية تشير إلى كتاب الخلق والتعاليم التي يمكن أن تستقى منه، وتبين الصحراء، التي يبدو أنها من حيث الظاهر خالية من الحياة، وتبرهن للوعي اليقظ حقيقة معجزة البعث.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (11).

هذه الصلة بالطبيعة لازمت حياة النبي ﷺ منذ أوائل طفولته بحيث يمكن للمرء أن يستنتج أن العيش في أحضان الطبيعة ومراقبتها وفهمها واحترامها شيء لا بد منه للإيمان العميق.

بعد عدة سنوات، عندما كان النبي ﷺ في المدينة، يواجه الصراعات والحروب، جاءه الوحي في قلب الليل ليحول نظره إلى أفق آخر لمعنى الحياة. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (12). وقد جاء في الأثر أن النبي ﷺ ظل يبكي طيلة الليل عندما نزلت عليه هذه الآية. وعند الفجر، عندما جاء بلال، مؤذن النبي ﷺ، يدعو للصلاة، سأل عن سبب تلك الدموع، وأوضح له النبي ﷺ سبب حزنه، وأضاف قائلاً: «ويل لكل من يسمع هذه الآية ولا يتأمل معناها!».

وتعتبر آية أخرى عن ذات المعنى مشيرة إلى آيات عديدة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ  
كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤) (١٣).

مما لا شك فيه أن السنوات الأولى في حياة محمد ﷺ قد أثرت على نظرته للحياة وأعدته لفهم ما ينطوي عليه الكون من آيات، فالدرس الروحي الذي يمكن استقاؤه منها أمر أساسي، من أجل تربية النبي ﷺ وتربيتنا عبر التاريخ على السواء: إن كون الإنسان ملتصقاً بالطبيعة، يحترم ما هي عليه، ويلاحظ ويتأمل ما ترينا وتعطينا أو تسترجع منا مقتضيات إيمان يحاول، في سعيه تغذية ذاته وتعميقها وتجديدها. فالطبيعة هي الدليل الأساسي والرفيق الحميم للإيمان، وبالتالي فقد قدر الله تعريض نبيه، منذ أوائل طفولته، إلى الدروس الطبيعية التي تستقى من الخلق، الذي يعتبر مدرسة حيث يتلقى العقل بطريقة متدرجة ويفهم العلامات ومعانيها، هذا النوع من التربية والتعليم البعيد جداً عن شكلية الطقوس الدينية الخالية من العنصر الروحي، ينشئ ويعزز من خلال التصاقه بالطبيعة ومن خلالها، علاقة صلة بالله تقوم على أساس التأمل والعمق اللذين سيجعلان من الممكن لاحقاً، في مرحلة ثانية من التربية الروحية، فهم مغزى الطقوس الدينية وشكلها وأهدافها. ففي انفصالنا

عن الطبيعة في بلداتنا ومدنتنا، فإننا على ما يبدو، قد نسينا معنى هذه الرسالة لدرجة أننا نقلب بشكل ينطوي على الخطر ترتيب المقتضيات ونؤمن بأن تعلم أساليب الدين وأشكاله (الصلاة، الحج... إلخ) يكفي للتوصل إلى معناها وأهدافها، هذا الوهم يؤدي إلى عواقب كبيرة إذ إنه يقود إلى تفريغ التعاليم الدينية من جوهرها الروحي، الذي يجب أن يكون في الواقع قلب هذا الجوهر.

### شق الصدر

جاء في الأثر أن حدثاً بالغ الغرابة حدث لمحمد ﷺ، فيما كان يلعب مع أولاد قبيلة بني سعد البدوية عندما كان في سن الرابعة، تقول حليلة إن ابنها جاء إليها وإلى زوجها وهو في حالة من الخوف وأنبأها بأن «رجلين بثياب بيضاء أمسكا به (محمد ﷺ) وطرحاه أرضاً، ثم قاما بشق صدره وأدخلا أيديهما فيه»<sup>(14)</sup>.

جرت حليلة وزوجها إلى المكان الذي دلهما عليه ابنهما ووجدا محمداً ﷺ يرتجف وشاحب اللون، وقد أكد لها رواية أخيه بالرضاعة، مضيفاً أنه بعد شق صدره، قام الرجلان «بلمس شيء فيه؛ لا أعرف ما هو»<sup>(15)</sup>.

أشارت هذه القصة قلق الزوجين وخشياً أن يكون الطفل قد تعرض إلى بعض الأذى، فقررا إرجاع محمد ﷺ إلى أمه. في أول الأمر، أخفيا السبب الرئيس لقرارهما، لكن بعد أسئلة الأم الملحة، قاما في خاتمة المطاف بإخبارها بالحدث. لكنها لم تشعر بالدهشة، بل قالت: إنها هي ذاتها قد شهدت علامات تفيد بأن مصيراً معيناً قيد الإعداد لطفلها.

بعد عدة سنوات استعاد النبي ﷺ ذكرى الحدث وقال: «إن الرجلين شقا صدره وأخرج قلبه وفتحاه واستخرجا منه علقة سوداء وقاما برميها بعيداً. ثم غسل قلبه وصدره بالثلج»<sup>(16)</sup>. وفي أحاديث أخرى أوضح المغزى الروحي لتلك الأحداث، في حديث مع بعض أصحابه، رواه ابن مسعود، قال: «ما من أحد منكم إلا له قرين من الجن أو من الملائكة موكل خصيصاً به» وسألوه: «حتى أنت، يا رسول الله؟»، «حتى أنا، لكن الله أعانني عليه وأسلم لذا فهو إنما يدعوني لفعل الخير»<sup>(17)</sup>.

هنا يوجه النبي ﷺ تفكيرنا إلى الحدث بما يتجاوز الوقائع المروية، أي إلى بعدها الروحي الأساسي: فمنذ أوائل طفولته، كان الرسول ﷺ محمياً من مغريات الشر التي تنتاب قلب كل منا، فتطهير صدره أعده لمهمته النبوية، وبعد خمسين سنة خاض تجربة مماثلة، عندما فتح قلبه مرة أخرى وتم تطهيره لتمكينه من الإسراء ليلاً إلى القدس، ثم رفعه إلى سدرة المنتهى<sup>(18)</sup>. مثل هذه التجارب الروحية، الفريدة والتلقينية، هيأت المصطفى ﷺ لتلقي أولاً رسالة الإسلام ثم أمر إقامة الصلاة، وهي أهم العبادات الدينية<sup>(19)</sup>.

على صعيد أكثر عمومية أشار القرآن إلى هذا التطهير بهذه الكلمات:

﴿لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾<sup>(20)</sup>، يقول معظم مفسري القرآن: إن تلك الآيات تشير بالدرجة الأولى إلى المنحة الثلاثية للنبي ﷺ: الإيمان بالواحد الأحد المطبوع في قلبه واصطفائه كنبي، وأخيراً، تأييد الله ذاته لرسالته.

وقد رأينا أن محمداً ﷺ كان منذ طفولته المبكرة مصحوباً بعلامات، محن تعلم منها وأعدته لتلك الرسالة.

بعد أن عاد محمد ﷺ إلى مكة ظل مع أمه مدة سنتين، وعندما بلغ السادسة من العمر، أرادت أمه أن يتعرف ابنها على أفراد أسرتها الذين يعيشون في يثرب (التي أصبحت تعرف لاحقاً باسم «المدينة»). فذهبا إليها، لكن آمنة مرضت في طريق العودة وتوفيت في أبواء حيث دفنت وأصبح محمد ﷺ الآن يتيم الأب والأم، تحيط به علامات اصطفاؤه فضلاً عن الحزن والألم والموت. وقد عادت بركة، وهي الخادمة التي سافرت معهما، بالطفل إلى مكة وهناك كفله جده عبد المطلب الذي أحاطه بمحبته الشديدة واحترامه البالغ. غير أنه توفي بعد سنتين.

### اليetim ومربيه

قصة محمد ﷺ محفوظة بالمصاعب، وقد نوه القرآن عن ذلك في مناسبات عديدة في القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾<sup>(21)</sup>. وعندما بلغ محمد ﷺ الثامنة كان يفتقر إلى الأب ويعاني من الفقر والوحدة وموت أمه ثم جده، على أنه كان دائماً يجد في طريقه علامات على مصير كان من خلال الناس والظروف، مقترباً بتطوره وتربيته ومسهلاً لهما، ففيما كان عبد المطلب على فراش الموت أوصى ابنه أبا طالب، عم محمد ﷺ، برعايته، وقد قام أبو طالب بهذه المهمة خير قيام، كما يفعل الأب مع طفله. وكان النبي ﷺ لا يفتأ يذكر مبلغ محبة عمه وزوجة عمه، فاطمة، له وعنايتهما به ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

طيلة حياته المحفوفة بالصعوبات، ظل محمد ﷺ تحت رعاية الواحد الأحد، بالطبع، فقد ورد في الأثر أنه كان في مكة محاطاً بحماية دائمة من عبادة الأوثان والاحتفالات والأعياد أو الأعراس حيث كانت تقترن بالسُّكر وانفلات السلوك، فقد سمع في إحدى الأمسيات أنه سيجرى احتفال بعرس في مكة وأراد حضور ذلك العرس، وقال: إنه في طريقه إلى العرس، شعر بالتعب فجأة واضطجع طلباً للراحة فنام. في اليوم التالي أفاق على حر الشمس من نومه العميق. قد تبدو هذه القصة غير ذات أهمية، غير أنها تكشف عن الطرق التي استخدمها ربه للحيلولة دون انجراف رسوله القادم إلى عدم ضبط النفس والسُّكر، فقد جعله الواحد الأحد، الذي كان دائماً معه، ينام حرقاً، ليحميه من غرائزه والحيلولة دون نشوء إحساس في قلب من كان يرباه بارتكاب الخطأ أو الذنب أو أي عذاب معنوي جراء فتنة يجذب إليها ولد في سنه، بحكم طبيعة الأمور. وفي حين أن اللطف وصرف الأذى عنه كانا يحيطان به لحمايته، إلا أن تلك الأحداث التي كان النبي ﷺ يذكرها لاحقاً أثبتت في نفسه بصورة متدرجة شعوراً أخلاقياً تكون جراء فهم تلك العلامات والأشياء التي كانت تحميه منها، هذا الانخراط الطبيعي في عالم الأخلاق، بعيداً عن أي هاجس من الإثم والشعور بالذنب، كان له أبلغ الأثر على ذلك النوع من التربية الذي نقله إلى أصحابه. فهذا الأسلوب التعليمي الذي يعتمد على اللطف وعلى حسن تقدير الأفراد، وعلى فهمهم للأوامر، سعى النبي ﷺ أيضاً إلى تعليمهم كيفية لجم غرائزهم - إذا جاز التعبير - وكيفية

اللجوء إلى الإلهاء لتفادي المغريات السيئة، هذه الطريقة في التعليم كانت بالنسبة لأولئك الأصحاب، مثلما هي بالنسبة لنا، في جميع العصور والمجتمعات، باللغة الأثر وتذكرنا بأن الحس الأخلاقي يجب تنميته لا من خلال المنع والحظر بل بشكل متدرج ولطيف وبارع ومقترن بحسن الفهم، وعلى صعيد عميق.

في السنوات اللاحقة، أصبح محمد ﷺ الصغير راعياً ليكسب قوت يومه، يرعى الغنم في ضواحي مكة. وقد حدث أصحابه بذلك بعد بعثته وصور لهم رعي الغنم بأنه مقترن بالأنبياء: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم». قيل: «وأنت يا رسول الله؟» قال: «وأنا»<sup>(22)</sup>.

وقد تعلم محمد ﷺ الصغير، وهو يرعى الغنم، العزلة والصبر والتأمل واليقظة، وتلك الصفات من مستلزمات جميع الأنبياء في تنفيذهم لمهامهم في وسط شعبهم، كما أنه اكتسب حساً عميقاً بالاستقلال في حياته وعمله، الأمر الذي جعله ناجحاً جداً في مهنة التجارة التي زاولها بعد وقت قريب.

